المحاضرة الأولى: تعريف الثقافة والثقافة الفرعية

عام:

يلعب مفهوم الثقافة Culture دورا بارزا في مختلف العلوم الإنسانية وخاصة العلوم الاجتماعية كعلم الاجتماع Sociology وعلم الإنسان Anthropology وعلم الإدارة Management وعلم النفس Psychology ويهتم أحد فروع علم النفس بدراسة الثقافات المختلفة ويتخذها محورا لاهتمامه وهذا هو علم الانثروبولوجيا الثقافية Cultural Anthropology ولما كانت السمة الغالبة لهذا العلم تؤكد الإطار الثقافي كما تطور من الماضي إلي الحاضر فإن فرعا جديدا قد ظهر أخيرا هو علم ثقافات المستقبل Cultural Futures ليضيف بعدا جديدا لأهمية هذا المفهوم في الحياة العملية حاضرا ومستقبلا .

ويعتبر " إدوارد تايلور E -tailor أول مع وضع تعريفاً للثقافة بأنها " ذلك الكل الذي يتضمن المعرفة والعقيدة والفن والأخلاق والعادات وأي قدرات اكتسبها الإنسان كعضو في المجتمع.

وقد عرفها " كلباتريك Kilpatrick " بأنها كل ما صنعه عقل الإنسان من أشياء ومظاهر اجتماعية في بيئته الاجتماعية أي كل ما قام باختراعه وباكتشافه الإنسان وكان له دور في مجتمعه.

وقدم محمد الهادي عفيفي تعريفا شاملاً للثقافة فهي في نظرة تعنى " كل ما صنعه الإنسان في بيئته خلال تاريخه الطويل في مجتمع معين وتشمل اللغة والعادات والقيم وآداب السلوك العام والأدوات والمعرفة والمستويات الاجتماعية والأنظمة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والتعليمية والقضائية. فهي تمثل التعبير الأصلي عن الخصوصية التاريخية لأمة من الأمم عن نظرة هذه الأمة إلى الكون والحياة والموت والإنسان وقدراته وما ينبغي أن يعمل، وما لا ينبغي أن يعمل أو يأمل.

هناك عدة تعريفات للثقافة منها:

1-هي مجمل طريقة حياة الجماعة أي أنها تشمل طريقة حياة الجماعة بجوانبها المختلفة المادية والمعنوية

2-الثقافة هي نلك النسيج الكلى المعقد الذي قام الإنسان نفسه بصنعه متمثلا في الأفكار والمعتقدات والعادات والتقاليد والقيم وأساليب التفكير وأنماط السلوك وطرق معيشة الأفراد وقصصهم وألعابهم ووسائل الاتصال والانتقال وكل ما توارثه الإنسان وأضافه إلى تراثه.

الثقافة بمفهومها العام هي ذلك النسيج الكلى المعقد من الأفكار والمعتقدات والعادات والاتجاهات والقيم وأساليب التفكير والعمل، وأنماط السلوك وكل ما يبقى عليه من

تجديدات أو ابتكارات أو وسائل في حياة الناس. مما ينشأ في ظله كل عضو من أعضاء الجماعة.

ومما ينحدر إلينا من الماضي ونأخذ به كما هو أو نطوره في ضوء ظروف حياتنا وخبراتنا.

فالثقافة بهذا المفهوم مادية، فردية، اجتماعية، نظرية، محلية، عالمية أو هي كما يقال: (كل شيء) في حياة الفرد والمجتمع على السواء.

وخلاصة القول أن الثقافة عبارة عن مجموعة الأنماط السلوكية من الناس تؤثر في سلوك الفرد الموجودة في تلك في تلك المجموعة وتشكل شخصيته وتتحكم في خبراته وقراراته ضمن تلك المجموعة من الناس التي يعيش بينها.

وتعرف الثقافة بمفهومها الشامل على أنها نظام عام مفتوح (Open Macro-System) يضم مجموعة من الأنظمة الفرعية التي تشمل تكنولوجيا الحياة الحاضرة والمتوقعة (ويدخل في ذلك الأنظمة المادية وغير المادية والناتجة عن تفاعل الإنسان مع غيره من بنى جنسه ومع البيئة المحيطة به على مدى زمني يمتد من الماضي إلى الحاضر إلى المستقبل.

ويلاحظ على هذا التعريف ما يلي:

1-أنه ينظر إلى الثقافة على أنها نظام عام أو نظام كبير، ومعنى ذلك أن الثقافة تتميز بالوحدة وبالشكلية وبالتكامل في نفس الوقت كما يعنى أنها مفتوحة لتأثيرات الثقافات الأخرى كما أنها تؤثر في غيرها من الثقافات وفى إحداث التغير الثقافي خاصة في عصر وسائل الاتصال المتقدمة الذي نعيشه الآن.

2-إن الثقافة كنظام يضم تكنولوجيا الحياة يؤكد على قدرة الإنسان على الابتكار والخلق فالثقافة من صنع الإنسان وحدة وهي عنصر يميزه عن سائر الكائنات وتشير كلمة تكنولوجيا الي الوسائل والي التطبيق كما تشير أيضا الي الأفكار الجديدة وعلي ذلك تقرر أن مفهوم الثقافة يجمع بين الفكر والتطبيق والوسيلة وما حياة الناس إلا فكرة يستتبعها تطبيق والوسيط بين الفكرة والتطبيق إنما هو الوسيلة والأدوات والإمكانيات المتاحة والفرص الممكنة ، وينصهر ذلك كله في علاقات متبادلة تؤدى إلى مزيد من الأفكار وتطوير في الوسائل وتجديد في التطبيق ، وهكذا تتطور الثقافة .

3-إن فكرة التفاعل في هذا التعريف تشير إلى إيجابية العنصر البشرى وقدرته على التأثُير في قوى البيئة المحيطة، فليس هو بالمستجيب المتكيف مع ظروف البيئة المحيطة 0 بالمعنى الضيق للتكيف) وإنما حية الإنسان نتاج التفاعل بالتأثير والتأثر مع غيره من الكائنات والماديات والجماعات.

4-يترتب على هذه النظرية لمفهوم الثقافة اتساع محتواها ليشمل كل أنشطة الإنسان المنظمة. فالنظام السياسي جزء من الثقافة يميز المجتمع عن غيره من المجتمعات وهو بذلك تكنولوجيا تنظيم القوة والسلطة والإدارة والحكم في مجتمع معين، والنظام الاقتصادي جزء من الثقافة باعتباره تكنولوجيا تنظيم وسائل الإنتاج وأجوائه وأساليب توزيع الثروة وما يستتبع ذلك من إنتاج واستهلاك وادخار، والنظام التعليمي جزء من الثقافة باعتباره تكنولوجيا إعداد البشر. إلخ

5-يؤكد هذا المفهوم قدرة الإنسان على إعادة حياته بصورة أفضل ونحو تحقيق أهدافه ومن هنا كان دور الإنسان كصانع للتغيير، ويصبح دور التربية بالغ الأهمية كوسيط للتغير الثقافي وإعداد الإنسان عمليا وفنياً للقيام بهذا الدور.

6-يؤكد هذا المفهوم على التأثير المتبادل بين الأنظمة الفرعية للثقافة دون سيطرة أحدها على الأخر أو تفوق عنصر على آخر في تشكيل الثقافة على خلاف ما نادت به المدرسة المادية مثلاً من تفوق العنصر الاقتصادي في تشكيل الثقافة على أنه العامل المحدد الأساسي.

ويعتبر تعريف " نبيل علي " من أحدث تعريفات الثقافة ومن أهمها نظرا لارتباط

التعريف بعصر المعلومات وسماته، فقد قدم الثقافة " كنسق اجتماعي " قوامه القيم والمعتقدات والمعارف والعادات والفنون والممارسات الاجتماعية والأنماط المعيشية، وأيضاً كأيديولوجيا تتضمن معيار الحكم على الأمور وترتبط الثقافة عنده بتكنولوجيا المعلومات ، حيث أن تلك التكنولوجيا ، تعتبر منظاراً نرى العالم من خلاله عبر شاشات التليفزيون وشاشات أجهزة الكمبيوتر ، ولوحات التحكم ونماذج المحاكاة ن علاوة على أنها أداة فعالة للحكم بفضل وسائلها الكمية والإحصائية في قياس الرأي وخلافة .

ومن التعريفات السابقة للثقافة نستخلص أن العنصر المشترك فيها هو الإنسان ذو الفاعلية المؤدية إلى استحداث أمور في مجتمعه، بعضها مادي يتمثل في كل ما ينتجه ويمكن التحقيق منه بالحواس والبعض الآخر غير مادي ويتضمن العادات والتقاليد والقيم والأخلاق والأساليب الفنية.

مفهوم الثقافة الفرعية:

تشير الثقافة الفرعية، الثانوية، أو الخاصة إلى مجموعة من الناس أو شريحة اجتماعية معينة تختلف في وجهة معينة عن ثقافة أكبر هي جزء منها، وقد يكون الاختلاف متعلق بنمط الحياة والمعتقدات أو التخصص في أحد مجالات المعرفة أو طريقة رؤية العالم.

الثقافة الفرعية يمكن أن تجمع بين مجموعات من الناس ذات خصائص مماثلة، مثل العمر والعرق والطبقة الاجتماعية أو الدين أو المعتقدات السياسية. كل ثقافة فرعية معينة تعكس المعارف والممارسات أو التفضيلات ـــالجمالية أو الدينية، أو السياسية أو الجنسية أو غير ذلك. وتعرف في بعض الأحيان بطبقة اجتماعية أو أقلية او لغوية أو عرقية أو سياسية أو دينية أو منظمة اجتماعية. إن التعريف الوارد للفرعية في كثير من الأحيان هو معارضة لقيم الثقافة الأكبر التي وكأنهم فيها منغمسون، ولكن على هذا لم يكن هناك اتفاق بين علماء الاجتماع.

من النادر أن يطلق على أعضاء وظيفة معينة تسمية "ثقافة فرعية" أو "فئة فرعية". وقد ينطبق تعبير الفئة الفرعية على بعض المهن التي تتطلب الانتقال من مكان إلى مكان مثل البحارة أو الدبلوماسيين أو المبشرين، بحكم انتمائهم إلى شعوبهم من جهة، ويختلفون عن الأغلبية في بعض التفضيلات التي اكتسبوها في الغربة.

وفي عصر الحاسوب ظهرت فئة من المبرمجين المتمكنين تسمى (الهكر) تنتمي إلى الفئة الكبيرة للمبرمجين، وتعودت وسائل الإعلام على انساب هذه التسمية إلى المفسدين الذين يقومون بأعمال تخريب في الإنترنت والذين يسميهم البعض قراصنة الحاسوب.

كما أنه يمكن القول بأن الفئة الارستقراطية في المجتمع تنتمي إلى "ثقافة فرعية " حيث أن لهم عادات وتفضيلات تختلف بعض الشيء عن الطابع العام.

مثلت خطوط الأزياء والموسيقى واللغة والسلوك التي يتبعها الشباب بصفة عامة موضوعاً للدراسات الأكاديمية والجدل الإعلامي في العالم منذ ظهور المراهقين الأثرياء في البلدان الغربية بعد الحرب العالمية الثانية بالتحديد، وتميل الدراسات الأكاديمية إلى التركيز على الشباب من الرجال، حيث اهتم عدد من الكتاب في السبعينيات – مثل ديك هيبدايج – بدراسة جماعة "البانك" (المتشردين المتمردين) وأصحاب التقاليع الجديدة والمغرمين بموسيقى الروك، الأمر الذي أفرز مصطلحي "ثقافة الشباب" و"الثقافة الفرعية" اللذين كادا يكونان مترادفين, وفي الثمانينيات بدأت بعض الكاتبات النسويات مثل أنجيلا ما كروبي يرفضن تعريف "ثقافة الشباب" كنوع من الممارسة العامة، ويدخلن الطقوس الخاصة للشابات والفتيات في سياق هذا الجدل. فالحدود التي تحد ثقافة الشباب –خصوصاً باعتبارها سوقاً تجارية– تتسع لتتغلغل في مرحلة الدراسة الثانوية حتى وصلت إلى تلميذات المدرسة الابتدائية وإلى المهنيات الشابات في أواخر العشرينيات وأوائل الثلاثينيات من العمر، واللاتي أطلقت عليهن تسمية "الشباب في أواسط العمر".

وكما ورد في موسوعة النظرية الثقافية فإن "مفهوم الثقافة الفرعية مفهوم هام، وسبب ذلك تحديدا أنه يتيح الفرصة للاعتراف بتنوع الثقافات داخل المجتمع الواحد. وبينما كان المفهوم القديم لثقافة الشباب يميل إلى افتراض وجود ثقافة واحدة متجانسة بين

الشباب، يؤكد مفهوم الثقافة الفرعية تفتت هذه الثقافة، خاصة تبعا للخطوط الفاصلة بين الطبقات. وكما هو الحال مع مفهوم الثقافة المضادة يميل مفهوم" الثقافة الفرعية "إلى افتراض وجود شكل ما من أشكال المقاومة للثقافة السائدة. ومع هذا، فإن مصطلح" الثقافة المضادة" يتزايد استعماله في الحاضر للإشارة إلى الجماعات القادرة على تقديم تبرير وتصوير عقليين لوضعها الاجتماعي، أما الثقافات الفرعية فتبرز تعارضها مع المجتمع أساسا من خلال استخدامها لدلالات طراز الملابس .... ولأنماط معينة من السلوك (أو الشعائر). تتقاطع مفاهيم الثقافة المضادة والثقافة الفرعية مع مفهوم الهوية وقد تؤدى إلى عدم استقرار ثقافي.

على الرغم من ان الانثروبولوجيين هم من نحت مصطلح (الثقافة الفرعية) في المبتدأ، الا ان علماء الاجتماع هم من استعمله كثيرا وفي نطاق عريض من الموضوعات، بما في ذلك دراستهم للنزعة الجنحية في خمسينيات القرن العشرين، والتربية في الستينيات، والاسلوب في السبعينيات من القرن نفسه. واعتبرت التعريفات السوسيولوجية الثقافات الفرعية نوعا من الادراج الفرعي للثقافة الوطنية. واستمر هذا التركيز على الاختلاف بين مجموعة اجتماعية بعينها ومجموعة أكبر خلال تنقيحات لاحقة للمفهوم نفسه.

وبهذا المعنى نفهم الثقافة باعتبارها (اسلوب حياة)، وتشمل (خرائط المعنى) التي تشكل كيفية احساسنا وفهمنا للعالم. ويقصد من كلمة (فرعي) القاء الضوء على السبل التي تميل المجموعات التي تمت دراستها الى ان تكون مجموعات تابعة، او سرية او هدامة، وبالتالي تعد مجتمعات سفلية، ولكنها لم تخرج بعد عن إطار ثقافة سائدة. وبالتبعية لم يكتف علماء الاجتماع بدراسة اسلوب استهجان الاغلبية لتلك الثقافات الفرعية، الا انهم قاموا كذلك بفحص سبل إدراك اعضاء تلك الثقافات لاختلافهم والتصدي لوضعيتهم من خلال تبني اساليب معينة بديلة في مواجهة تلك الثقافة الواسعة النطاق.

تتنوع اصول هذا المفهوم، غير ان سيسيولوجيا الانحراف في امريكا كانت ذات تأثير قوي وخاص. ونخص هنا سيسيولوجيا التمدين، وهو المفهوم الذي عملت جامعة شيكاغو على تطويره في مطلع القرن العشرين، حيث رسخت العديد من القضايا المحورية التي نقحت في دراسات لاحقة. واعتبر علماء اجتماع شيكاغو المدينة موزاييكا منتظما من اصول مميزة، يحوي الاحياء الصناعية والمقاطعات الاثنية والمناطق الاجرامية. وتطورت تلك التي تسمى بالمناطق الطبيعية من خلال الارتباط ببعضها لتصيغ ايكولوجيا حضرية. وكشفت ابحاثهم عن النزعة الجنوحية الناشئة عن ان هناك بقاعا معينة في المدينة تكون أكثر عرضة من غيرها لتكون بقاعا اجرامية، بغض النظر عن المجموعة الاثنية التي تعيش بها، وعن ان انتقال تلك المجموعات للعيش في مناطق اخرى يؤدي الى انخفاض معدلات الجريمة. ناقض هذا الاستنتاج تأويلات الزيغ والانحراف السيكولوجية التي كانت سائدة وقتذاك، حيث قالت ان

الجريمة تنبع من امراض نفسية في الفرد وعيوب في الشخصية. واعتبرت النظرية الجديدة ان مجتمعات الاكواخ والاكشاك تتصف ببنيتها الاجتماعية واعرافها الثقافية الخاصة التي تضفي الصلاحية على اساليب المعيشة المنحرفة، وتنظر الى انشطة العصابات الاجرامية باعتبارها من الاعراف.

مع خمسينيات القرن العشرين تمت دراسة صعوبات التحديد السوسيولوجي للعصابات من خلال مفهوم الثقافة الفرعية. ومن جديد اكتسبت التطورات الامريكية اهمية مع اهتمام علماء الاجتماع في شيكاغو: وتحديدا كيفية تفسير المشكلات الاجتماعية ذات الصلة باللامساواة بين الطبقات. وتم تعريف العصابة بكونها ثقافة ثانوية ذات منظومة قيم على المحك مع الثقافة السائدة، تميزت بمفردات متخصصة، ومعتقدات مشتركة، بل وبملابس مختلفة. ومن ثم اعتبرت الثقافات الفرعية حلولا جماعية للإشكالات البنيوية التي فرضها موقع طبقة وخبرات مغايرة. وكان الراي ان شبان الطبقات العاملة يلتحقون بالعصابات كرد فعل على قيم سائدة في الطبقة الوسطى تتعامل معهم بتفرقة وتمييز. وبالتالي يتحقق الوضع الاجتماعي من خلال وسائل منحرفة وقلب قيم الطبقة الوسطى .

عندما طبقت نظرية الثقافة الفرعية في بريطانيا في الستينيات، لم يكن هناك من ادلة تدعم القول ان يافعي الطبقة العاملة عانوا (سخطا على وضع اجتماعي)، بل انهم انفصلوا بانفسهم عن المدارس والوظائف التي تتسيدها الطبقة الوسطى. خلال ذلك زاد الاهتمام ليس باللامساواة الطبقية فحسب، بل كذلك بعدم جدوى تعليم شباب الطبقة العاملة. وركز عدد من الدراسات على ان الترف جلب حلا جماعيا لمشكلاتهم، وصار بديلا من الانجاز الدراسي.

سعت هذه المقاربة الثقافية – التي تأثرت بشدة بأحدث الكتابات النظرية في الماركسية الاوربية وعلم الاجرام الناشئ في بريطانيا – الى ربط الاساليب الثقافية الفرعية بالطبقة الاجتماعية والثقافة والايديولوجيا. ودرس تأويل قديم لفيل كوهين ظهور (المودز) و(حليقي الراس) في الحي الشرقي بلندن، وذلك من خلال تحليل ذكي لتفكك الطبقة العاملة وانمحاء ثقافتها التقليدية مع التراجع الاقتصادي والتغير الحضري.

ولم تقم الثقافات الفرعية الشابة بحل ازمة العلاقات الطبقية، بل هي محاولات رمزية لحل اشكاليات خفية. واسست هذه الدراسة للعديد من المحاور في مقاربة مركز الدراسات الثقافية المعاصرة بجامعة برمنغهام عبر سلسلة من الاصدارات في السبعينيات. عندها اعتبرت الثقافات الفرعية لشباب الطبقة العاملة في فترة ما بعد الحرب تمثيلات رمزية التناقض الاجتماعي في البنية الطبقية البريطانية. واعتبرت تحديدا نوعا من المعارضة وليس الانحراف. على ان هذه المقاومة استنزفت في مجالات ترفيه استهلاكية، وبالتالي تفشل تماما في مواجهة بنى السلطة الاوسع نطاقا، بل قد تعاضدها، وهنا تكون المأساة.

يتعرض هذا الموضوع لمناقشة أهم الموضوعات الأكثر جدلا في الساحة الفكرية عموما، وهي الثقافة والثقافة الفرعية وما يرتبط بها من خصائص، وذلك من خلال التطرق إلى مفهوم الثقافة كأسلوب حياة، وما يشمله من جوانب مادية ولا مادية في حياة المجتمعات، ثم الثقافة الخاصة أو الثقافة الفرعية وخصائصها النموذجية المميزة بين المجتمعات المتقدمة والمجتمعات "البسيطة"، وكل ذلك يمثل وجهة نظر خاصة في ضرورة الاهتمام بالثقافات الفرعية باعتبارها نتاجا للمجموعات البشرية وأسلوبها في الحياة.